هي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها قد تحلت بازاهر
الرياحين وتجلت في حلل سندسية وحلت من موضوع الحسن بمكان مكين وتزينت في
منصتها اجمل التزيين وتشرفت بان اوى الله المسيح وامه منها الى ربوة ذات قرار
ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل
ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل
وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل قد سئمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت
الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب
قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت
بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر فكل موقع لحظت بجهاتها الاربعة نضرته اليانعة
قيد النظر ولله صدق القائلين فيها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها
وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها قال العلامة ابن جابر الوادي آشي بعد
ذكره وصف ابن جبير لدمشق ما نصه ولقد احسن فيما وصف منها واجاد وتوق الانفس
للتطلع على صورتها بما افاد هذا ولم تكن له بها اقامة فيعرب عنها بحقيقة علمه وما
وصف ذهبيات اصيلها وقد حان من الشمس غروب ولا ازمان فصولها المنوعات
والاوقات سرورها المهيئات ولقد انصف من قال الفيتها كما تصف الالسن وفيها
ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين انتهى رجع الى كلام ابن جبير فنقول ثم ذكر في وصف
الجامع انه من اشهر جوامع الاسلام حسنا واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال
تنميق وتزيين وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شانه
انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروف بالخطاف ثم مد النفس في
وصف الجامع وما به من العجائب ثم قال وبعد عدة او واق مما دفعه عن يمين الخارج
من باب جيرون في جدار البلاط الذي امامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه
طيقان صفر وقد فتحت ابوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا
فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من
صفر قائمين على طاستي صفر تحت كل واحد منهما احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني
تحت آخرها والطاستان منقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار
الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويسمع لهما دوي
وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند انقضاء
كل ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها
الاول ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة
اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة
مدبرة ذلك كله خلفها منها الطيقان المذكورة خلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على
ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها
شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل
وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشانها وانتقالها
يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسميها الناس المنجانة انتهى
المقصود منه قلت كلما ذكره رحمه الله تعالى في وصف دمشق الشام واهلها
فهو في نفس الامر يسير ومن يروم عد محاسنها التي اذا رجع البصر فيها انقلب وهو
حسير وقد اطنب الناس فيها وما بقي اكثر مما ذكروه وقد دخلتها اواخر شعبان من سنة
سبع وثلاثين والف للهجرة واقمت بها الى اوائل شوال من السنة وارتحلت عنها الى
مصر وقد تركت القلب بينها رهينا ° وملكت هواها مني فكرا وذهنا فكانها بلادي
التي بها ربيت ° وداري الذي لي به اهل وبيت لا ان ارض بابل ولا بغداد ان فالله
سبحانه يعطرها بالعافية الارداف وقد عن لي ان اذكر جملة مما قيل فيها من الامداح
الرائقة ° واسرد ما خاطبني به اهلها من الفضلاء الفائقة فنقول قال البدر بن
حبيب يمم دمشق ومل الى غربيها ° والمح محاسن حسن جامع يلبغا ° من قال ان حسنه ابتنظره
بين الجوامع في البلاد فقد بلغا وقال لله ما احلى محاسن جلق ° وجهاتها اللاتي تروق وتعبق
وقال في كتاب تشنيف السامع بوصف الجامع ° لله ما اجمل وصف جلق
وما حوى جامعها المنفرد ° قد اطرب الناس بحسن صيته ° وكيف لا يطرب وهو معبد
وقال في ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة ° يا راغبا في غير جامع جلق ° هل يستوي الممنوع والممنوح
افسحناك وفي علوك لا تزد ° اذ الزيادة بابها مفتوح ° وقال في منارته المعروفة
بالعروس ° معبد الشام يجمع الناس طرا ° واليه شوقا تميل النفوس
كيف لا يجمع الورى وهو بيت ° فيه تجلى على الدوام العروس ° ومنه في ذكر بابيه

ذكر جامع دمشق الشام

الوليد

الوليد تالله ما كان الوليد عابثا ° في صرفه المال وبذل جهده ° لكنه احرز ملك معبد
لا ينبغي لاحد من بعده ° ومن ابيات في اخرى بجامع جلق رب الرغائب ° ام تلق العناية والكرامة
ويمم نحوه في كل وقت ° وصل به تفضل دار الاقامة ° مصلى فيه للرحمن سر ° ومثوى للقبول به علامة
محل كل البادي حلاوه ° وبيت ابدع الباني نظامه ° دمشق لم تزل للشام وجها ° وبين معابد الآفاق طرا
له امر الامارة والامامة ° ادام الله بالجمع والنقى ° محاسنه الى يوم القيامة انتهى ولم اقف على هذا الكتاب
المذكور بل على بعضه فقط ومن قصيدة القاضي المهذب بن الزبير ° بالله يا ريح الشمال
اذا اشتملت الروح بردا ° وحملت من عرف الخزامى ° ما اعنت للند ندا ° ونسجت ما بين الغصون
اذا اعتنقن هوى وودا ° اهوهز زرت عند الصبح من ° اعطافها قدا فقدا ° ونثرت فوق الماء من
اجيادها الزهر عقدا ° فلات صفحته وجهه ° حتى كتسي اساورودا ° وكانها الف فبدت
منها صدغا وخدا ° تمرى على بردا عسا ° يزيد في مسراك بردا ° نهر كفصل السيف تكسو
متنه الازهار غمدا ° صقلته انفاس النسيم ° فمر هن فليس يصدا ° فيها لحبابنا ما بالكم
فينا من الاعداء اعدى ° وحياة حبكم وحر ° مة عهدكم ما خنت عهدا وقال الكمال الشريشي
بالخيرة الشام هل من نحوكم خبر ° فان قلبي بنار الشوق يستعر ° بعدت عنكم فلا والله بعدكم
ما لذ للعين لا نوم ولا سهر ° اذا تذكرت اوقاتا مضت ° بقربكم كادت الاحشاء تنفطر
كانني لم اكن بالنيربين ضحى ° والغيم يبكي ومنه يضحك الزهر ° والورق تنشد والاغصان راقصة
والدوح يطرب بالتصفيق والنهر ° والسفح اين عشياتي التي ذهبت ° لي فيه فهي لعمري عندي العمر
سقاك يا سفح سفح الدمع منهملا ° وقل ذاك له ان اعوز المطر وحكى ابن سعيد وغيره ان
غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى اهل دمشق الشام بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها
بها لما راوها كثيرة المياه والاشجار وقد اطل عليها جبل الثلج وفي ذلك يقول ابن جبير صاحب
الرحلة ° يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها ° تحتك الانهار تجري °
وهي تنصب اليها قال ابن سعيد اشار ابن جبير الى ان غرناطة في مكان مشرف
وغوطتها تحتها تجري فيها الانهار ودمشق في وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله
تعالى في وصف الجنة تجري من تحتها الانهار انتهى وقال الصفدي انشدني المولى
الفاضل البارع شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الخياط بقلعة الجبل من الديار
المصرية حرسها الله تعالى لنفسه في شعبان المكرم سنة سبعمائة واثنين وثلاثين
قصدت مصر امري يا جلق ° بهمة تجري بتجريبي ° فلم اللطف حتى جربت ° دموع عيني بالمزيريبي
وانشدني لنفسه ايضا ° خلفت بالشام حبيبي وقد ° يممت مصر لعنى طارق
والارض قد طالت فلا تعتدي ° بالله يا مصر على العاشق ° وانشدني لنفسه ايضا
يا اهل مصر انتم للعلى ° كواكب الاحسان والفضل ° لو لم تكونوا الجمع دون الملا
وانتكم اضرب في الرمل ° انتهى وذكرته بزمنه لحسن معناه وقال الشيخ مجد الدين محمد
بن احمد المعروف بابن الظهير الحنفي الاربلي ° لعل سنا برق الحمى يتالق
على النادي او طيف الاسماء يطرقه ° فلا نارها تبدو لمرتقب ولا ° وعود الاماني الكواذب تصدق
لعل الرياح الهوج تدنو لنا بريح ° من الشام عرفا كالطيب تعبق ° ديار قضينا العيش فيها منعمة
واياما تحنو علينا وتشفق ° سحبنا بها برد الشباب وشربنا ° لذيذا كما شيئا الدهر رونقا
مواطن منها السهم سهمي وظله ° تجمع طايا اللهو فيه وتعنق ° جلا جانبيه معلم متجعد
من الماء في اطلاله يتدفق ° اذا الشمس حلت فيه فهو مذهب ° وان حجبتها دوحة فهو ازرق
وان زيح الاوراق جادت بنورها ° فرقم اجادته الاكف منمق ° يظل عليه قاسيون كانه
غمام معلى او نعام معلق ° تسافر عنه الشمس قبل غروبها ° وتزحف جلا الاده حين تشرق
ونيضر من قبل الاصيل كانها ° محب من البين المشتت مشفق ° وفي النيرب الميمون للراس البنا
من المنظر الزاهي وللطرف مرمق ° بدايع من صنع القديم ومحدث ° تانق فيها المحدث المتانق
رياض كوشي البرود ونبتها ° جداولها فالنور بالماء ينبرق ° فمن نرجس يحيى فروق فريقه
يرى الدمع في اجفانه يترقرق ° ومن كل ريحان منعم وزاير ° يصافح رياه الرياض فيعبق
كان قدود السمر فيه موائسا ° قدود عذارى حليها مترفق ° اذا ما كدعت المستفاق صدها
عيون من النور المفتح ترمق ° وتقصر بكل الطرف عنه كانه ° الى المنبر يسرى في السماء معلق
وكم جدول جاري يطارد جدولا ° وكم جوسق عال يوازي جوسقا ° وكم ركض فيها تضاحك بركة
وكم مسقط للماء فيه تدفق ° وكم منزل يغشى العيون كانما ° تالق فيها بارق يتالق
وفي الربوة الفيحا للقلب جاذب ° وللهم مسرات وللعين مرمق ° عروس جلاها الدهر فوق منصة
من الدهر والامصار ترمي وترمق ° فهام بها الوادي ففاضت عيونه ° فكل فرادمنه بالدمع يشرق
تكنفه من دون الجداول شرعها ° يزيد تصفيقه لها وبروق ° وقال ابو تمام في دمشق
لو لا حدائقها وانى لا ارى ° عرسا هناك ظننتها بلقيسا ° وارى الزمان غدا عليك بوجهه
جذلان بساما وكان عبوسا ° قد نورت تلك البطون وقد سمت ° تلك الظهور وقد سبقه لبيسا

King Saud University
Copyright King Saud University